مجلة مدرسة الإسكندرية

عدد ٦

قضية الاختيار

من خلال الأصحاح التاسع في سفر رومية

القس مرقس داود

قضية الاختيار

من خلال الأصحاح التاسع من رسالة رومية

القس مرقس داود

كاهن كنيسة الشهيد العظيم مارجرجس - سبورتنج - الإسكندرية
frmorcosdaoud@yahoo.com

طرح القضية

قضية الاختيار هي قضية تفسير بعض آيات الكتاب المقدس التي أشارت إلى اختيار الله Election لبعضٍ من البشر ليكونوا خاصةً له. وهم المُعَيَّنون سابقًا Predestined للحياة الأبدية، والمُنتخَبون لملكوت السماوات، والمعروفون لله من قبل تأسيس العالم بحسب علمه السابق.

ولقد أثارت هذه القضية العديد من الأسئلة، التي مازالت تُثار حتى يومنا هذا، منها:

١- هل الله يختار البعض من البشر ليكونوا خاصةً له دون البعض الآخر؟
٢- على أيِّ أساسٍ يكون الاختيار؟
٣- هل للإنسان دورٌ في اختياره ليكون من خاصة الله؟
٤- هل الإنسان مُسَيَّر أو مُخَيَّر؟
٥- كيف للإنسان - خلال مسيرة حياته - أن يعرف إن كان من المختارين أم من الهالكين؟
٦- إن كان هناك مختارون للحياة الأبدية، وآخرون للهلاك الأبدي، فما فائدة جهاد الإنسان؟ وما فائدة الكرازة بالخلاص والحياة الأبدية؟ وما فائدة الرعاية للمؤمنين بالمسيح؟

وأسئلة أخرى كثيرة يمكن أن تثيرها قضية الاختيار.

سنحاول ـ بنعمة الله ـ في هذا المقال التطرُّق لهذه القضية الشائكة، مع محاولة مناقشة الأسئلة السابقة، مع تركيزنا على الأصحاح التاسع من رسالة القديس بولس الرسول إلى أهل رومية، حيث إنه من أكثر أجزاء الكتاب المقدس التي أُثيرَتْ فيها قضية الاختيار، وبالأخصِّ أنها كانت الموضوع الأساسي الذي يدور حوله الأصحاح بأكمله، وليست مجرد آية واحدة أو تعبير بذاته داخل الأصحاح. كما احتوى هذا الأصحاح على أكثر من آية تحتاج للتفسير الصحيح بحسب الفكر العام للكتاب المقدس، وبحسب الفكر الكنسي السليم المستقر في الكنيسة، مع الرجوع إلى فكر البعض من آباء الكنيسة ـ وسنعتمد بالأكثر في ذلك على القديس يوحنا الذهبي الفم، مع مناقشة رأي القديس أغسطينوس في هذه القضية، والظروف التي أحاطت به عند تقديمه لهذا الرأي.

أولاً: آيات ترتبط بقضية الاختيار

بخلاف الأصحاح التاسع من رسالة رومية، الذي في مجمله يرتبط بقضية الاختيار، والذي سنقوم بشرحه لاحقًا في هذا المقال بنعمة الله، نعرض فيما يلي نموذجًا لبعض من تلك الآيات التي يُستَنَد إليها لدعم فكرة أن الله يختار البعض للخلاص دون اعتبار لإرادة أو دور الإنسان، مع إبراز التعبيرات الدَّالَّة على ذلك في وسط هذه الآيات:

«قبلما صَوَّرتُك في البطن عرفتُك، وقبلما خرجتَ من الرحم قدَّستُك. جعلتُك نبيًّا للشعوب.» (إر١: ٥)

«لأن كثيرين **يُدعَون** κλητοί وقليلين **يُنتَخَبُون** ἐκλεκτοί» (مت٢٢: ١٤)

«ولو لم تُقَصَّر تلك الأيام لم يَخلُص جسدٌ. ولكن لأجل **المختارين** ἐκλεκτοὺς تُقَصَّر تلك الأيام.» (مت٢٤: ٢٢)

«ونحن نَعلَم أن كل الأشياء تعمل معًا للخير للذين يحبُّون الله، الذين هم **مَدعُوُّون** κλητοῖς حسب قصده. لأن الذين **سَبَقَ فعَرَفَهم** προέγνω **سَبَقَ**

فَعَيَّنَهُم προώρισεν ليكونوا مشابهين صورة ابنه، ليكون هو بِكرًا بين إخوةٍ كثيرين. والذين **سَبَقَ فعَيَّنَهم** προώρισεν، فهؤلاء **دعاهم** ἐκάλεσεν أيضًا. والذين **دعاهم** ἐκάλεσεν، فهؤلاء بَرَّرَهم أيضًا. والذين بَرَّرَهُم، فهؤلاء مَجَّدَهم أيضًا.» (رو٨: ٢٨ ـ٣٠)

«إذ **سَبَقَ فعَيَّنَنا** προορίσας للتبنِّي بيسوع المسيح لنفسه، حسب مسرَّة مشيئته» (أف١: ٥)

«الذي فيه أيضًا نِلْنَا نصيبًا، **مُعَيَّنِينَ سابقًا** προορισθέντες حسب قصد الذي يعمل كل شيءٍ حسب رأي مشيئته» (أف١: ١١)

«... **المختارين** ἐκλεκτοῖς بمقتضى **عِلْم الله الآب السابق** πρόγνωσιν θεοῦ πατρὸς، في تقديس الروح للطاعة، ورشِّ دم يسوع المسيح...» (ابط١: ١، ٢)

ثانيًا: بعض الآراء التي لا نتفق معها حول قضية الاختيار والتعيين السابق

أ. رأي القديس أغسطينوس

على قدر تقدير الكنيسة للقديس أغسطينوس وأقواله وكتاباته، إلاَّ أنه، فيما يتعلَّق بقضية الاختيار والتعيين السابق، كان صاحب آراء لا تتفق مع فكر الكنيسة. وقد كان ذلك بسبب تأثُّره بالردِّ على البيلاجية[1] Pelagianism، التي أنكرت دور نعمة الله في حياة الإنسان، ونادتْ بقدرة الإنسان على الوصول إلى الكمال بإرادته الحرة وعمله البشري دون الاحتياج إلى نعمة الله. لذلك تطرَّف القديس أغسطينوس في ردِّه على البيلاجية، لتأكيد دور النعمة الإلهية في حياة الإنسان، **حتى إنه نادى بأن الله اختار**

---

[1] تُنسَب البيلاجية إلى بيلاجيوس Pelagius، وقد كان ناسكًا عاش في روما، حيث اشتهر بعلمه ونسكه. لكنه رفض وراثة البشر للطبيعة الفاسدة من آدم أبيهم، وقال بأن ما فعله آدم من خطيةٍ وعصيانٍ ما هو إلاَّ "مثال سيئ". وعلى ذلك نادى بأن الإنسان بإرادته الحرة وحدها يستطيع "أَلاَّ يخطئ"، وبهذا رَفَضَ دور نعمة الله في حياة الإنسان. لذلك أُدين بيلاجيوس في مجمع قرطاج سنة ٤١٨، واعتُبِرَ فكره، الذي أُطلِقَ عليه "البيلاجية"، أنه هرطقةٌ.

البعض للخلاص والحياة الأبدية، وإن أخطأوا في وقتٍ ما من حياتهم، فلا بُدَّ أن تَرُدَّهم النعمة الإلهية ليعودوا إلى الله فينالوا الخلاص الذي عُيِّنوا له سابقًا بحسب نعمة الله وتعيينه السابق Predestination. كما أن الله اختار البعض الآخر للهلاك الأبدي، وحتى إن عاشوا في وقتٍ ما من حياتهم حياة مقدسة، فإنهم لا بُدَّ أن يسقطوا في الخطية لتنتهي حياتهم في الشر، فينالوا جزاءهم الأبدي: الهلاك الذي هم مُعَيَّنون له سابقًا Predestined من قِبَل الله[٢].

ويقول القديس أغسطينوس: "وهنا إذا سُئِلتُ: لماذا لم يعطِ الله هؤلاء الهالكين الثبات الذي أعطاه للذين أحبَّهم (المُخَلَّصين)، كي يحيوا حياةً مسيحيةً؟ فإني أجاوب بأنِّي لا أعرف. وذلك لأنني لا أتكلم بتعالٍ، بل بتأكيدٍ على ضآلة قَدْري، إذ أسمع قول الرسول: «**بل مَنْ أنتَ أيُّها الإنسان الذي تجاوب الله؟» (رو٩: ٢٠)**"[٣]

وهكذا كان القديس أغسطينوس من أوائل مَنْ قدَّموا آراء أخذت منحى التطرُّف في قضية الاختيار والتعيين السابق، نظرًا لِمَا أحاط به من ظروف الاحتياج للردِّ على البدعة البيلاجية[٤].

---

[2] Philip Schaff, NPNF, First Series, Vol. 5, *Treatise on Rebuke and Grace*, Ch. 16, 17, 478

[3] Ibid.

[٤] وإن كُنَّا نقول بأن آراء القديس أغسطينوس في قضية الاختيار والتعيين السابق قد أخذت منحى التطرُّف، لكن يجب أن نضع في اعتبارنا الأمور الآتية:

١- هذا لا يقلِّل من تقدير الكنيسة لتعليم وكتابات القديس أغسطينوس.

٢- كل أب من آباء الكنيسة أحاطت به ظروف معينة. بل إن تعاليم وكتابات نفس الأب، قد تكون متأثِّرة بظروف وخلفيات تختلف من وقتٍ لآخر، وبالتالي قد تأتي التعاليم والكتابات حاملةً سمات مختلفة بناءً على الوقت الذي كُتِبَت أو قيلت فيه.

٣- وإن كُنَّا نعطي أهمية عظيمة لكتابات الآباء، كإحدى المصادر الأساسية للتقليد الكنسي، إلاَّ إننا قد لا نتفق مع بعض الآراء لبعض الآباء بناءً على عدم اتفاق هذه الآراء مع الفكر الكنسي العام المستقر في الكنيسة، والذي يُجمع عليه أغلب الآباء. ونؤكِّد ثانيةً أن هذا لا يقلِّل من شأن هذا الأب، كما لا يقلِّل من فائدة ومنفعة بقية تعاليمه وكتاباته.

ب. نظرية جون كلفن(٥) John Calvin

تأثَّر جون كلفن بالفلسفة الرواقية، وقد كان من المعجبين بشدة بالفيلسوف الروماني سينيكا. وقد نادى جون كلفن بعقيدة "التعيين السابق Predestination"، أو ما يُسَمَّى بـ "التعيين السابق المزدوج Double Predestination"، بمعنى اختيار الله للبعض من البشر وتعيينهم للحياة الأبدية، وفي نفس الوقت اختيار البعض الآخر وتعيينهم للهلاك الأبدي. وهذا الاختيار لهؤلاء ولأولئك بحسب قضاء الله الأزلي. ويقول في ذلك: "لا يمكننا أن نصل إلى قناعة كاملة بأمر خلاصنا، حتى نتعرَّف على الاختيار الأبدي لله، الذي يُظهِر نعمته بأنه لا يعطي رجاء الخلاص للجميع، بل يَهِبُ البعض ما لا يَهِبُه للآخرين!!" كما يضيف كلفن: "التعيين السابق هو قضاء الله الأبدي، الذي به قرَّر الله في نفسه مصير كل إنسانٍ. إذ ليس جميع الناس مخلوقين على نفس الحال، بل البعض سَبَقَ تعيين الحياة الأبدية لهم، بينما للآخرين اللعنة الأبدية. **إذًا، كل إنسانٍ مخلوقٌ لإحدى هاتَيْن النهايتَيْن، ونقول إن هذا الإنسان مُعَيَّن سابقًا إمَّا للحياة وأمّا للموت!!"**

أمَّا عن الأساس الذي يقوم عليه التمييز بين المختارين للحياة الأبدية والمحكوم عليهم بالهلاك الأبدي، فيقول كلفن: "فيما يختص باختيار المختارين: إنه قصد الله، الذي يقوم على أساس رحمته المجانية، مِمَّا لا علاقة له إطلاقًا باستحقاق الإنسان. لكن بالنسبة للمُخصَّصين للدينونة، فأبواب الحياة مغلقة أمامهم بحكمٍ عادلٍ غير قابل للنقض أو المناقشة رغم كونه غير مفهومٍ!!" وَيستَشهِد كلفن في ذلك بآية من الأصحاح التاسع من رسالة القديس بولس الرسول إلى أهل رومية: «**فإذًا هو يرحم مَنْ يشاء، ويُقسِّي مَنْ يشاء**» (رو٩: ١٨).

---

[5] Philip Schaff, *History of the Christian church*, Vol. 8: *Modern Christianity*. The Swiss Reformation, 387-391

والتابعون لنظرية كلفن - ويُسَمُّون بالكلفنيين Calvinists - انقسموا إلى قسمَيْن[٦]، من جهة رؤيتهم لنظرية كلفن الخاصة بالتعيين السابق المزدوج: المؤمنون بالتعيين السابق قبل سقوط الإنسان (آدم) Supralapsarians[٧]، والمؤمنون بالتعيين السابق بعد سقوط الإنسان (آدم) أو على أساس سقوط الإنسان Infralapsarians. القسم الأول Supralapsarians يؤمنون بأن السقوط كان مُحَدَّدًا بواسطة الحكم الإلهي في اختيار البعض ورفض البعض الآخر، بينما القسم الثاني Infralapsarians فيؤمنون بأن اختيار الله للبعض للخلاص بالنعمة الإلهية، والرفض الإلهي للبعض الآخر للهلاك الأبدي جاء كنتيجة لسقوط الإنسان. أي أنه بالنسبة للقسم الأول Supralapsarians السقوط هو جزء من خطة الله للاختيار، وبالتالي الاختيار أسبق من السقوط، بل وأسبق من خلق الإنسان نفسه، ولأجله تقرَّر سقوط الإنسان (آدم) من قِبَل الله، ليتحقَّق اختيار البعض للحياة الأبدية، والبعض الآخر للهلاك الأبدي. بينما للقسم الثاني Infralapsarians اختيار الله هو نتيجة لسقوط الإنسان. وبالتالي السقوط - بسماح من الله - سَبَقَ اختيار الله، الذي قام على سقوط البشرية كلها، لكن بتقرير إلهي اختير البعض منهم للخلاص من حكم السقوط، والبعض الآخر لم يُختَرْ، فبقى في الهلاك الأبدي.

هكذا نرى أنه على مدى النظريات المتنوعة حول موضوع الاختيار والتعيين السابق، تأتي الكلفينية - نسبةً إلى جون كلفن - كأكثرها تشدُّدًا.

لم نقصد بالعرض السابق لنظرية جون كلفن الاستفاضة في عرض النظريات حول قضية الاختيار، كما لم نقصد توجيه مقالنا وِجْهَة طائفية، على أساس أن جون كلفن يُمَثِّل أحد القيادات الكبيرة لحركة الإصلاح، والذي منه تستقي الكثير من الطوائف البروتستانتية فكرها حتى الآن؛ لكن

---

[6] Charles Hodge, *Systematic Theology*, Vol. 2, 316-321

[٧] جاءت التسمية من الأصل اللاتيني Lapsus، وهي تعني سقوط. ومنها جاءت التسميتان Supralapsarians، Infralapsarians عَمَّنْ يؤمنون بأن السقوط كان بحكم إلهي ليختار الله البعض للخلاص بحسب نعمته، أو عَمَّنْ يؤمنون بأن الاختيار الإلهي لخلاص البعض كان قائمًا على أساس سقوط الإنسان.

ما قصدناه هو الوصول إلى أحد المصادر الأساسية للفكر الذي لا نتفق معه ككنيسة أرثوذكسية، مع عرضه كنموذج للفكر الذي مازال يعتقد به البعض حتى يومنا هذا، ويحتاج مِنَّا الردَّ عليه من جهة الفكر الكنسي الأصيل. وبالأخصِّ أن هذا الفكر يؤثِّر سلبيًّا على الفكر والسلوك الروحي لِمَنْ يعتقدون بأنهم قطعًا سواءً من المُخَلَّصين أو من الهالكين. فلِمَنْ يؤمنون بأنهم من المُخَلَّصين، يَصبغ هذا الفكر سلوكهم بإحساس التميُّز غير الصحي، وإحساس الكبرياء المُقَنَّع، مع إلغاء لأيِّ دورٍ للإنسان في خلاصه وطلبه لهذا الخلاص. أمَّا لِمَنْ يؤمنون بأنهم من المرفوضين أو الهالكين، فإن هذا الفكر يَصبغ سلوكهم باليأس وعدم الانفتاح على الله ومحبته للبشر؛ كما قد يكون هذا الفكر مُبَرِّرًا مختفيًا داخل النفس للتمادي في لذة الخطية، على أساس أن نهاية مثل هذا الإنسان محتومة، وهي الهلاك الأبدي. وبالتالي تكون فلسفتهم العملية هي ما نادى به الرواقيون: «فلنأكل ونشرب لأننا غدًا نموت» (١كو١٥: ٣٢)، وأيضًا كانوا يقولون بأن اللذة هي جوهر الحياة.

ج. رأيٌ معاصرٌ

كمثال للآراء المعاصرة - وهي كثيرة - التي تُعتَبَر امتدادًا للفكر الكلفيني، رأي كارلين[٨] Karleen: "عمل الله في الاختيار هو فصل البعض من الكل ليكونوا موضوع بركات الله". ويتساءل: "هل يمكن للبعض من الذين آمنوا بالحقيقة بالمسيح كمخلِّصٍ أن يفقدوا خلاصهم من خلال خطيتهم الخاصة أو بفعل آخر (الشيطان مثلاً)؟" ويجيب هو نفسه على هذا السؤال بأنه إذا كان الله فقط يرى مُقَدَّمًا مَنْ الذي سيؤمن، فإنه لا يوجد ضمان لثبات الإنسان في الإيمان سوى عمله الشخصي. وبالتالي يستنكر Karleen هذا الردَّ مؤكِّدًا أن ثبات الإنسان في الإيمان بالمسيح مضمون بسبب اختيار الله. **ويساوي كارلين بين سابق علم الله وبين تدبيره وتخطيطه للإنسان!! وهكذا نلاحظ إلغاء هذا الرأي لأي دور للإنسان في خلاصه.**

[8] Paul S. Karleen, *The handbook to Bible Study*

أمَّا عن كيفية اختيار الله، وعلى أيِّ أساسٍ يقوم هذا الاختيار، فيعتبر كارلين هذا الأمر واحدًا من أكثر الإشكاليات المحيِّرة التي يواجهها البعض. ويقدِّم الإجابة، بناءً على (رو٧:٩ ـ ١٣)، بأن **الله بحسب سلطانه يختار كما يشاء**. ويذهب إلى أبعد من ذلك في تأكيد أنه **لا يوجد أي سبب آخر لقساوة قلب فرعون سوى أن الله هو الذي فعل ذلك!!** ويستند في هذا إلى **(رو٩: ١٧)**[٩] مؤكِّدًا أن مشيئة الله في رحمته للبعض، وفي تقسيته للبعض الآخر، هي إظهار اسمه وقوته!!

مناقشة القضية

بعد محاولتنا لطرح قضية الاختيار والتعيين السابق، وما تحمله من تساؤلات وأبعاد عملية، نحاول الآن في خوض مناقشة القضية وإجابة ما تثيره من أسئلة من خلال الفكر الكنسي والآبائي المتزن. وستكون مناقشتنا للقضية من خلال:

١ ـ استعراض لأمثلة من آيات الكتاب المقدس التي تؤكِّد على الدور الإنساني في نوال الخلاص، ليكون الإنسان من المختارين المنتخبين للحياة الأبدية وملكوت السماوات.

٢ ـ شرح وتفسير الأصحاح التاسع من رسالة القديس بولس الرسول إلى أهل رومية، معتمدين في ذلك بشكلٍ أساسيٍّ على تفسير القديس يوحنا الذهبي الفم، الذي قَدَّمَ شرحًا متزنًا لهذا الأصحاح، حتى نستطيع اعتباره الأكثر تعبيرًا عن الفكر الكنسي الصحيح في القضية، التي هي محور الأصحاح.

٣ ـ نظرة عامة ختامية على القضية.

---

[٩] هكذا نلاحظ أن الأصحاح التاسع من رسالة رومية هو قاسم مشترك في استشهادات تقريبًا كل مَنْ تطرَّق لقضية الاختيار والتعيين السابق، وبالأخص مَنْ ذهبوا إلى آراء متطرِّفة في هذه القضية. لذلك رأينا لِزامًا علينا، ونحن نناقش هذه القضية، أن نقدِّم شرحًا تفسيريًّا لهذا الأصحاح.

أولاً: آيات تؤكّد على دور الإنسان في خلاصه

إن كُنَّا قد استعرضنا أمثلة لبعض الآيات التي فُسِّرَتْ خطأً لدعم فكرة اختيار الله بعضًا للخلاص والبعض الآخر للهلاك، دون وجود دور للإنسان وحرية إرادته، سنستعرض أيضًا أمثلة لبعض الآيات التي تؤكّد على حرية إرادة الإنسان، وبالتالي وجود دورٌ له في أمر خلاصه، مع التركيز أيضًا على التعبيرات الدَّالَّة على ذلك:

«ومن أيام يوحنا المعمدان إلى الآن ملكوت السماوات **يُغصَب**، **والغاصبون يَختَطِفونَه**.» (مت١١: ١٢)

«يا أورشليم، يا أورشليم! يا قاتلة الأنبياء وراجمة المُرسَلين إليها، كم مرةٍ **أردتُ** ἠθέλησα أن أجمع أولادك كما تَجمَع الدجاجة فِراخها تحت جَناحَيْها، **ولم تُريدوا** καὶ οὐκ ἠθελήσατε!» (مت٢٣: ٣٧)

«وقال للجميع: إن **أراد** θέλει أحدٌ أن يأتي ورائي، فليُنكر نفسه ويحمل صليبه كل يومٍ، ويَتْبعني.» (لو٩: ٢٣)

«**وانفصل** عنهم نحو رَمية حجرٍ وجَثا على رُكبَتَيْه وصلَّى قائلاً: يا أبتاه، إن شِئتَ أن تُجيز عنِّي هذه الكأس. ولكن **لتكن لا إرادتي بل إرادتك** τὸ θέλημά μου ἀλλὰ τὸ σὸν γινέσθω» (لو٢٢: ٤٢)

«إذًا يا أحبائي، كما أَطَعتم كل حينٍ، ليس كما في حضوري فقط، بل الآن بالأولى جدًّا في غيابي، **تَمِّموا خلاصكم** بخوفٍ ورعدةٍ.» (في٢: ١٢)

«لأنه لا بُدَّ أننا جميعًا نُظهَر أمام كُرسيِّ المسيح، لينال كل واحدٍ ما كان بالجسد **بحسب ما صنع**، خيرًا كان أم شرًّا.» (٢كو٥: ١٠)

ثانيًا: شرح الأصحاح التاسع من رسالة القديس بولس الرسول إلى أهل رومية

قبل أن نخوض في شرح هذا الأصحاح، لا بُدَّ من معرفتنا بالظروف التي كُتِبَت فيها الرسالة، والهدف من كتابتها. كذلك لا بُدَّ أن نعرف السياق الذي كُتِبَ فيه هذا الأصحاح، والمضمون الذي احتوته الأصحاحات الثمانية السابقة لهذا الأصحاح. فجدير بالذكر أن نعرف أن رسالة رومية من الرسائل ـ ونستطيع القول إنها أكثر الرسائل ـ التي تحتوي على خطٍ فكريٍّ مُحْكَم التسلسل، أراد به القديس بولس الرسول الرد على بدعة التهوُّد، وبالأخص في قسمها اللاهوتي الذي يضم الأحد عشر أصحاحًا الأولى.

ملخص محتوى الأصحاحات الثمانية السابقة للأصحاح التاسع

نستطيع أن نعتبر اليهود هم شعب الله المختار ليأتي من نسله مخلِّص العالم في العهد القديم، قبل تجسُّد رب المجد يسوع المسيح بحوالي ألفَيْ عامٍ منذ دعوة الله لإبراهيم، ثم إسحاق ويعقوب من بعده. ودُعِيَ شعب إسرائيل الابن البكر لله (خر٤: ٢٢). ومن اليهود تجسَّد مخلِّصنا الصالح كإنسانٍ يهوديٍّ. ثم دعا له تلاميذًا ورسلاً من اليهود أيضًا، لكن لم يأتِ الرب يسوع لليهود فقط، بل للعالم كله. وقد كانت هذه خطته من أجل خلاص العالم.

ولم يكن بالأمر السهل أن تخرج الكنيسة من وسط الشعب اليهودي، بفكره الضيق وإحساسه بالتميُّز عن كل شعوب الأمم كشعب مختار لله، لتفتح ذراعَيْها للعالم كله، وتحتضن المؤمنين بالمسيح، من كل الأمم والشعوب والقبائل والألسنة، وليس من اليهود فقط. لذلك ظهرتْ بدعة التهوُّد بواسطة الذين آمنوا بالمسيح من أصلٍ يهوديٍّ، وقد نادوا بأنه لا يمكن لإنسانٍ أمميٍّ أن يؤمن بالمسيح إن لم يَصِرْ يهوديًّا أولاً؛ بأن يُخْتَتَن ويخضع لكل أحكام ناموس العهد القديم. وقد ناقش أول مجمع كنسي، مجمع أورشليم حوالي سنة ٥٠ م، هذه القضية، وقَرَّر فيه الآباء الرسل، بإرشاد الروح القدس، عدم وجوب التهوُّد كشرطٍ لقبول الإنسان الإيمان بالمسيح والدخول في عضوية

الكنيسة جسد المسيح. لكن لم ينتهِ الأمر بالنسبة لأنصار التهوُّد عند ذلك الحدِّ، بل ظلُّوا يقاومون الروح رافضين الإذعان لقرارات مجمع أورشليم في هذا الصَدَد، مِمَّا حدا بالرسول بولس بأن يكتب رسالته لأهل غلاطية للردِّ على هذه البدعة. وإذ كانت البدعة آخذة في الانتشار في أكثر من مكانٍ، كَتَبَ الرسول رسالته إلى أهل رومية للردِّ، بأكثر استفاضة، من أجل القضاء على فكر التهوُّد، والتأكيد على أن البرِّ - أي البراءة من الخطية وحكم الموت - لا يبدأ إلاَّ بالإيمان بالمسيح، وليس بتبرير الذات من خلال أعمال الناموس التي حَوَّلَها فكر قادة اليهود إلى فرائضَ، يشعر مَنْ يُتَمِّمها بأنه مستحقٌ للبر، إذ تفضَّل على الله بهذه الأعمال!

هكذا جاءت الرسالة في الثلاثة أصحاحات الأولى تؤكِّد على أن الأمم أخطأوا في حق ناموسهم الطبيعي، وبالتالي هم واقعون تحت غضب الله، ومستحقون للموت. كذلك اليهود أخطأوا في حق ناموس موسى، ولهم نفس النصيب المؤلم. هكذا يكون الجميع قد زاغوا وفسدوا معًا (رو٣: ١٢)، وأعوزهم مجد الله، ولا رجاء لهم إلاَّ في بر الله، الذي ظهر بدون الناموس، لكن بالإيمان بالمسيح الذي يشهد له الناموس (رو٣: ٢١).

ثم يأتي الأصحاح الرابع ليُثْبِت فيه القديس بولس الرسول أن إبراهيم، الذي يفتخر اليهود لانتسابهم إليه بالبنوة الجسدية، ليس هو أبًا لليهود فقط، بل أبٌ لجميع المؤمنين بالمسيح الذي أتى من نسل إبراهيم (رو٤: ١٦).

ثم في الأصحاح الخامس يَعقِد القديس بولس الرسول مقارنة بين آدم الذي ينتسب إليه بلا جدال جميع البشر، وما صار علينا من خطيةٍ وموتٍ من قِبَله؛ وبين الرب يسوع المسيح، الذي ينتسب إليه كل المؤمنين به، وما صار لنا من نعمةٍ وبرٍّ وحياةٍ أبديةٍ من قِبَل الإيمان به.

بعد ذلك يأتي الأصحاح السادس ليتحدَّث عن المعمودية كوسيلة للاتحاد بالمسيح بشِبْه موته، وكذلك بقيامته. هكذا صار للمؤمنين حياةٌ جديدةٌ، يقدِّمون فيها أعضاءهم كآلات برٍّ للّه بعد أن كانت آلات إثمٍ للخطية.

ثم يناقش الأصحاح السابع مسألة الناموس، موضِّحًا أن الناموس من الله، وهو مقدسٌ، والوصية مقدسة وعادلة وصالحة (رو٧: ١٢). لقد أوضح الناموس السلوك الذي يليق بشعب الله، عن طريق الوصية الإلهية. كما أوضح نتيجة عصيان الوصية، وهي الموت. هكذا كان الناموس عاجزًا عن علاج أزمة الإنسان الخاطئ الذي يحمل طبيعة فاسدة، وَرَثَها عن آدم الأول أب جميع البشرية. فرغم أن الناموس مقدس، إلاَّ أنه لم يستطع إصلاح الفساد الذي دخل إلى الإنسان، كما إنه حَكَمَ على الإنسان، الواقع تحت سلطان الخطية، وبالموت الذي هو نتيجة للخطية.

ثم ينتقل الرسول إلى الأصحاح الثامن حيث يوضِّح أن المسيح هو الوحيد الذي عالج أزمة الإنسان: في تجسُّده استطاع - كحامل للطبيعة البشرية ونائبٍ عن البشرية - أن يحيا حياة كاملة مقدسة بلا لومٍ ولا خطية؛ ومن ناحيةٍ أخرى مات عن جميع البشر، ليفديهم فداءً أبديًّا. هكذا لم يَعُدْ شيءٌ من الدينونة على الذين هم في المسيح يسوع، بشرط السلوك بالروح القدس، الذي بواسطته صار المؤمنون أعضاءً في جسد المسيح عن طريق المعمودية.

هنا نصل إلى الأصحاح التاسع، الذي يناقش قضية الاختيار، في سياق الرد على بدعة التهوُّد؛ بمعنى أن ما عَنِيَ الرسول بتوضيحه، من خلال إثارته لهذه القضية، لم يختصُّ بتعامل الله مع الأشخاص من جهة اختيارهم من عدمه، إنما كان يختصُّ بخطة الله الكبيرة لخلاص العالم كله، والتي، بظهور المسيح في الجسد، قد حان الوقت لانفتاح الباب أمام الأمم لقبول الخلاص، ليصيروا هم أيضًا في عِداد المختارين للحياة الأبدية بإيمانهم بالمسيح، الذي جاء من اليهود، لكن ليس لليهود فقط، بل للعالم أجمع. وهذا ما قاومه بالطبع أصحاب بدعة التهوُّد. وكما سنرى في شرح هذا الأصحاح، إن كان الرسول استَشْهَدَ بأمثلة لأشخاصٍ اختارهم الله، وأشخاص رفضهم الله، وأشخاص قَسَّى الله قلوبهم؛ فلم يكن هذا إلاَّ بسبب ارتباط هؤلاء الأشخاص بشعبه إسرائيل، الذي اختاره كجزء من خطة الخلاص الكبيرة للعالم كله.

وبالتالي أراد الرسول التأكيد على حق الله في قبول الأمم واختيارهم، كما اختار هو أيضًا اليهود من قبل، دون أن يراجعه المنادون بالتهوُّد.

هذا هو السياق الذي تناول فيه الرسول هذه القضية الشائكة، وهذا ما دفعنا لأن نستهلَّ شرحنا لهذا الأصحاح بالمقدمة الطويلة السابقة، لتأكيد أن الإطار العام الذي يحدِّد تفسير هذا الأصحاح هو أنها قضية عامة مرتبطة بالرد على التهوُّد، وليست قضية مجرَّدة تتعلَّق بتعامل الله مع الأشخاص. هذا أيضًا قائم على أساس ترابط الأفكار وتسلسلها وراء بعضها البعض في خطٍ فكريٍّ متصلٍ، لا يمكن معه شرح أيِّ جزءٍ بمفرده بمعزل عن بقية الرسالة.

والآن ننتقل إلى شرح الأصحاح التاسع من الرسالة إلى أهل رومية...

مدخل

> **«أقول الصدق في المسيح، لا أكذب، وضميري شاهدٌ لي بالروح القدس: إن لي حزنًا عظيمًا ووَجَعًا في قلبي لا ينقطع. فإنِّي كنتُ أودُّ لو أكون أنا نفسي محرومًا من المسيح لأجل إخوتي أنسبائي حسب الجسد، الذين هم إسرائيليون، ولهم التبنِّي والمجد والعُهُود والاشتِرَاع والعبادة والمواعيد، ولهم الآباء، ومنهم المسيح حسب الجسد، الكائن على الكل إلهًا مُبارَكًا إلى الأبد. آمين.»** (رو٩: ١ ـ ٥)

يبدأ الرسول هذا الأصحاح بمقدمة مُعَبِّرة عن مشاعر المحبة الحقيقية غير الكاذبة، التي يَكِنُّها لإخوته وأنسبائه حسب الجسد من اليهود، مؤكِّدًا أنه لا يريد الانفصال عنهم. وبالأخصِّ أنه قال في نهاية الأصحاح السابق: «من سيفصلنا عن محبة المسيح؟ أشدةٌ أم ضيقٌ... ولا خليقة أخرى تَقدِر أن تَفصِلنا عن محبة الله التي في المسيح يسوع ربنا» (رو٨: ٣٥- ٣٩)، فقوله هذا لا يعني أنه بالتصاقه بالمسيح، قد انفصل عن شعبه، بل على العكس فهو يتألَّم بشدة لحرمان شعبه من معرفتهم بالمسيح، حتى إنه كان يودُّ أن يكون هو نفسه محرومًا من المسيح بدلاً منهم، لكي يعرفوه هم.

«ولكن ليس هكذا حتى إن كلمة الله قد سَقَطَتْ. لأن ليس جميع الذين من إسرائيل هم إسرائيليون، ولا لأنهم من نسل إبراهيم هم جميعًا أولادٌ. بل 'بإسحاق يُدعَى لك نسلٌ'. أي ليس أولاد الجسد هم أولاد الله، بل أولاد الموعد يُحسَبون نَسلاً. لأن كلمة الموعد هي هذه: أنا آتي نحو هذا الوقت ويكون لسارة ابنٌ.» (رو٩: ٦ ـ ٩)

من هنا يبدأ القديس بولس في إثارة الموضوع الجديد في سياق ردِّه على فكر التهوُّد، وهو موضوع اختيار الله للأمم وقبوله لهم، في مقابل افتخار الفكر اليهودي، الذي يَقصِر اختيار الله عليهم هم فقط، بل ويحاول أن يُنكِر على الله أن يختار الأمم دون أن يتهوَّدوا أولاً. ويفتتح الرسول حديثه في هذا الموضوع بردٍّ مُسَبَّقٍ بالنفي، على سؤالٍ سيفرض نفسه بعد أن يدافع القديس بولس عن قبول الأمم للإيمان بالمسيح، وبالتالي اختيار الله لهم للتبنِّي، والسؤال هو: إذا كان المسيح الذي أتى وصُلِبَ من اليهود هو المسيَّا المخلِّص، فإذا كان اليهود قد رفضوه، فإنهم يكونون هم أيضًا مرفوضين من الله. فهل يعني هذا سقوط كلمة الله والوعد الذي وَعَدَ الله به إبراهيم وإسحاق ويعقوب بأن يباركهم بركةً، ويُكثِّر نسلهم تكثيرًا؟ والإجابة: **«ولكن ليس هكذا حتى إن كلمة الله قد سَقَطَتْ»**.

يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم** معلِّقًا على هذه الآيات[١٠]: "يطلب الكثيرون معرفة السبب الذي من أجله سَقَطَ أصحاب الوعد منه، بينما الذين حتى لم يسمعوا قَطُّ عن الوعد، نالوا الخلاص قبل أصحابه. لذلك، ولكي يُزيل هذه الصعوبة، أورد القديس بولس الإجابة قبل الاعتراض... لقد قال الله لإبراهيم: «لنسلك أُعطِي هذه الأرض» (تك١٢: ٧)، وأيضًا: «وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض» (تك١٢: ٣). ويدعونا القديس بولس الرسول أن نفكِّر إذًا: أيُّ نسلٍ هو المقصود، لأن ليس كل من هم من إبراهيم هم نسله (المقصود في

[١٠] في أقوال الآباء، ما يوجد بين الأقواس هو من وضع المترجِم للإيضاح.

الوعود السابقة). ولذلك يقول الرسول: «لأن ليس جميع الذين من إسرائيل هم إسرائيليون، ولا لأنهم من نسل إبراهيم هم جميعًا أولادٌ.»"[١١]

هكذا أوضح القديس بولس الرسول أن كلمة الله لم تسقط من جهة إسرائيل، على أساس وجود وجهَيْن لإسرائيل: وجه روحي بحسب الوعد الإلهي، ووجه آخر جسدي بحسب التناسل الطبيعي الجسدي. والله أمين في وعده لكل إسرائيل، لكن السؤال هو هذا: مَنْ هم الأولاد الحقيقيين لإبراهيم؟ والإجابة هي أنه ليس كل أولاد إبراهيم بالجسد هم أولاد حقيقيين له. لأنه لو كان الأمر كذلك، لكان الأولاد من هَاجَر وقَطُورة قد حُسِبوا أولادًا لإبراهيم. لكن النسل الحقيقي هو النسل الذي وُلِدَ لإبراهيم بحسب الوعد الإلهي من خلال إسحاق فقط، إذ قيل له: «بإسحاق يُدعَى لك نسلٌ».[١٢]

> **«وليس ذلك فقط، بل رِفقة أيضًا، وهي حُبْلى من واحدٍ وهو إسحاق أبونا. لأنه وهما لم يُولَدَا بعدُ، ولا فَعَلا خيرًا أو شرًّا، لكي يَثبُت قصد الله حسب الاختيار، ليس من الأعمال بل من الذي يدعو، قيل لها: 'إن الكبير يُستعبَد للصغير'. كما هو مكتوبٌ: أحببتُ يعقوب وأَبغضتُ عيسو.»** (رو٩: ١٠ - ١٣)

إن كان في المثال السابق، الذي أعطاه القديس بولس، كانت المقارنة بين إسحاق ابن إبراهيم من سارة، وبين أولاد آخرين من أمهات أخريات؛ ففي هذه الآيات يُعطِي الرسول مثالاً آخرَ، والمقارنة هنا بين يعقوب وعيسو اللذَيْن وُلِدا من نفس الأب ونفس الأم، ولكن الكبير استُعبِدَ للصغير. واختير يعقوب، ودُعِيَ اسمه إسرائيل ليَنتسِبَ إليه كل من ينتمي إلى شعب الله، بينما رُفِضَ عيسو الذى انتَسَبَ إليه شعب أدوم الشرير والمعادي لشعب الله.

[11] *The Nicene and Post-Nicene Fathers*, edit. by: Schaff, Philip, (T&T CLARK, Edinburgh, WM. B. Eerdmans Publishing Company, Grand Rapids, Michigan), First Series Vol. XI, Saint Chrysostom: *Homilies on the Acts and the Epistle to the Romans*, Homily XVI, 462
[12] *The Orthodox Study Bible*, (Thomas Nelson, 2008) 1537

ويعلِّق **القديس يوحنا الذهبي الفم** على هذه الآيات، عن لسان القديس بولس الرسول: ”كان من الممكن أن أُشير إلى أولاد آخرين لإبراهيم من قَطُورة، لكنني لم أفعل. بل لكي أربح هذه الجولة من الحديث، فإنني أسوق إليكم مثالاً لابنَيْن (يعقوب وعيسو) من نفس الأب، ومن نفس الأم أيضًا. لأنهما وُلِدَا من رفقة، ومن إسحاق الابن الحقيقي المختار والمُكَرَّم فوق الجميع، الذي قيل عنه (من الله): بإسحاق يُدعَى لك نسلٌ، وهو الذي صار أبًا لنا جميعًا. ولكن إن كان هو أبًا لنا، فلا بُدَّ أن ابنَيْه هما أيضًا أبوانا؛ إلاَّ أن الأمر لم يكن كذلك. هكذا تَرَى أن هذا لم يحدث في حالة إبراهيم فقط، بل أيضًا في حالة ابنه؛ وترى أن الإيمان والفضيلة في كل الحالات هما الأهم، وهما اللذان يعطيان علاقة الأبوة والبنوة حقيقتها. إذًا نتعلَّم من هذا أن بنوة الابن للأب لا تتوقَّف فقط على الولادة الجسدية، بل على استحقاق الابن لفضيلة الأب.“[13]

ويقول العلاَّمة أوريجانوس أيضًا، في تعليقه على اختيار اللاويين للتكريس عِوَضًا عن أبكار بني إسرائيل، قائلاً: ”أَلاَ يُعَلِّمنا هذا بأن الذين اعتُبِروا أبكارًا أمام الله ليسوا هم الأبكار بحسب الميلاد الجسدي، بل الذين اختارهم الله أبكارًا **من أجل حُسن استعدادهم**. وهذا ما حدث بالنسبة ليعقوب الذي صار بكرًا بتدبير الله، وحصل على بركات البكورية بسبب عمى والده. **إذ رأى الله فيه حُسن استعداد قلبه**، إذ قيل عنه: «وهما لم يُولَدا بعد، ولا فعلا خيرًا أو شرًّا... يقول الرب: وأحببتُ يعقوب وأبغضتُ عيسو» (رو٩: ١١، ١٢، مل١: ٢، ٣). هكذا اللاويون أيضًا لم يكونوا أبكارًا بحسب الجسد، لكنهم اختيروا ليكونوا أبكارًا. وهذا امتياز كبير أن نكون متبنِّين كأبكار دون أن نولد أبكارًا.“[14]

---

[14] Philip Schaff, NPNF, First Series, Vol. 8, P. 465

[١٤] أحد رهبان دير القديس أنبا مقار، *شرح سفر العدد: سفر التيه والتجربة في البرية*، (دير القديس أنبا مقار، ٢٠٠٩)، ٤٥

أمَّا قول القديس بولس الرسول: «لأنه وهما لم يُولَدَا بعدُ، ولا فَعَلاَ خيرًا أو شرًّا، لكي يَثبُت قصد الله حسب الاختيار»، فيؤكِّد أن الله أعلن بسابق علمه عن اختيار يعقوب ورفض عيسو، وذلك وهما في بطن أمهما رفقة، ولم يفعلا بعد خيرًا أو شرًّا (تك٢٥: ٢٣). **وهذا دليل على حرية الله في الاختيار الذي لم يكن عشوائيًّا من قِبَل الله، ولا كان فيه محاباة، لكنه قائمٌ على حياة وسلوك كلٍّ منهما**: فالأول اختار البركة وسعى إليها، رغم استخدامه لطريقة خاطئة مخادعة، ورغم ما له من سقطات وضعفات؛ بينما الثاني باع بكوريته، واستهان بالبركة واحتقرها، ولذلك حذَّرنا القديس بولس الرسول نفسه من أن نتشبَّه بعيسو، الذي دعاه زانيًا ومستبيحًا (عب١٢: ١٦، ١٧).

ويطرح، في هذا الصَدَد، **القديس يوحنا الذهبي الفم** أسئلة هامة ويجيبها إذ يقول: "ما سبب أن الواحد كان محبوبًا (يعقوب)، والآخر كان مُبغَضًا (عيسو)؟ لماذا كان الواحد يَخدِم (عيسو)، والآخر يُخدَم (يعقوب)؟ **ذلك لأن واحدًا كان شريرًا، والآخر صالحًا**. ورغم أنهما لم يُولَدا بعد، كُرِّمَ الواحد وأُدينَ الآخر. لذلك وهما لم يُولَدا بعد، قال الله: إن الكبير يُستعبَد للصغير. بأيِّ قصدٍ قال الله ذلك؟ لأنه لا ينتظر، كما يفعل أيُّ إنسانٍ ليرى من نتيجة أعمالهما: مَنْ هو صالحٌ، ومَنْ هو ليس كذلك. لكنه، من قبل ذلك، يعرف أيَّهما شريرٌ، وأيُّهما ليس كذلك"(١٥). كما يضيف **الذهبي الفم**: "إن هذا علامة على سَبْق علم الله: أنهما مختاران منذ ميلادهما المبكِّر(١٦). إن الاختيار القائم على سَبْق العلم، يبدو بوضوح أنه من الله، منذ اليوم الأول حيث إنه رأى وأعلن مَنْ هو صالحٌ، ومَنْ هو ليس كذلك."(١٧)

[16] Philip Schaff, NPNF, First Series, Vol. 8, 464

[١٦] ما قَصَدَه القديس يوحنا الذهبي الفم هنا، هو أن الله اختار يعقوب الأصغر دون عيسو الأكبر، بناءً على سابق علمه بكِلَيْهما وبحياة كلٍّ منهما، ليكون هو أَبَا أسباط شعبه المختار في العهد القديم. ولا يَقصِد أن الله اختار عيسو للرفض والبُغضة والهلاك، كمَنْ نادوا بالتعيين السابق المزدوج Double Predestination.

[17] Philip Schaff, NPNF, First Series, Vol. 8, 465

لكن وإن كان يعقوب باحثًا عن البركة، ومجاهدًا مع الله[١٨]، وكان صالحًا كما سَبَقَ لنا القول، إلاَّ أن عطية الله له لم تكن قائمةً على برٍّ في ذاته أو على أعمال ناموس، إذ لم يكن الناموس قد أُعطِيَ بعد؛ بل كانت عطية مجانية سَبَقَ الله أن أعلن عنها، ويعقوب بعد في بطن أمه، لئلا إذا كَبُرَ يعقوب وظَهَرَ صلاحه، لظنَّ أن وعد الله واختياره له هما امتيازٌ واستحقاقٌ شخصيٌّ. وهذا ما شرحته الآية: «**لكى يَثبُت قصد الله** (في إتمام الخلاص) **حسب الاختيار** (اختيار يعقوب ليكون هو إسرائيل الذى يُنسَب إليه شعب الله ويأتى من نسله المخلِّص)، **ليس من الأعمال بل من الذى يدعو**». **إذًا كَوْن يعقوب صالحاً، ويظهر هذا من حياته، وصراعه مع الله، وطلبه للبركة؛ إلاَّ أن هذا لا يعني استحقاقه الذاتي للاختيار ليكون أَبَا أسباط شعب الله الذي يأتي منه المخلِّص للعلم كله، بل يظلُّ هذا الاختيار نعمةً، لِمَا سَبَقَ الله فرآه فيه من استعدادٍ ورغبةٍ وطلبٍ للبركة، وثباتٍ فيها فيما بعد.**

وفي تعرُّض الرسول لاختيار الله ليعقوب إسرائيل، وهو بعد في بطن أمه، ربما أراد أن يوضِّح لليهود الذين يرفضون قبول الله للأمم، أن الله له الحق - بل كل الحق - في ذلك. فهو الذى اختار يعقوب دون فضلٍ منه، ودون مبرِّرٍ يَقدِرون هم أن يقدِّموه عن سبب هذا الاختيار من قِبَل الله، وبالأخصِّ أنه أعلن عن هذا الاختيار وهو لم يَزَلْ بعد في بطن أمه. وعلى ذلك فليس لهم الحق في رفض قبول الله للأمم بحسب خطة الله من أجل خلاص العالم كله[١٩].

«فماذا نقول؟ ألعلَّ عند الله ظلمًا؟ حاشا!» (رو٩: ١٤)

أي قد يقول قائلٌ بأن في محبة الله ليعقوب وبُغضته لعيسو ظلمًا، ولكن يجيء الرد بالنفي القاطع. ويقدِّم **القديس يوحنا الذهبي الفم** السبب لذلك: "إذًا لا تحاسب الخالق، ولا تقول: لماذا كُلِّلَ الواحد، وعوقِبَ الآخر؟ لأن

---

[١٨] سُمِّيَ يعقوب بإسرائيل يوم صَارَعَ مع الله، فدعاه الله بهذا الاسم قائلاً: «لا يُدعَى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل، لأنك جاهدتَ مع الله والناس وقَدَرْتَ.» (تك ٣٢: ٢٨)

[١٩] تادرس يعقوب ملطي (القمص)، *رسالة القديس بولس الرسول إلى أهل رومية*، (الإسكندرية: كنيسة الشهيد العظيم مارجرجس سبورتنج، ١٩٩٠)، ١٩٤.

الخالق يعرف كيف يفعل هذه الأمور بكل دقةٍ. أيضًا عندما يقول: أحببتُ يعقوب، وأبغضتُ عيسو؛ فهذا يكون بعدلٍ. أنت تعرف عن طريق النتائج، أمَّا (الله الخالق) فهو يعرف بجلاءٍ حتى قبل النتائج.''[٢٠]

«لأنه يقول لموسى: إنِّي أرحم مَنْ أرحم، وأتراءف على مَنْ أتراءف.» (رو٩: ١٥)

هذه العبارة هي استشهاد من سفر الخروج (خر٣٣: ١٩)، حيث طَلَبَ موسى من الله أن يُرِيَه مجده، فجاءت هذه العبارة في ردِّ الله على طَلَبِ موسى لتأكيد أن معاينة مجد الله، والتمتُّع بحضوره هو عطية مجانية يقدِّمها الله من واقع رحمته ورأفته، وليس من واقع استحقاق الإنسان أو برِّه الذاتي، حتى لو كان هذا الشخص هو موسى النبى العظيم كليم الله. وبالتالي فهي تأكيد على حرية الله في اختيار يعقوب دون عيسو، لأن الله - في رحمته ورأفته - يشاء خلاص العالم من خلال هذا الاختيار ليعقوب إسرائيل، الذي صار أبًا للشعب الذي جاء منه مخلِّصنا الصالح.

كما أن هذه العبارة لم تأتِ هكذا: ''إنِّي أرحم مَنْ أرحم، وأُهلِك مَنْ أُهلِك''[٢١]. **ولذلك فهي ردٌّ على سبب محبة الله ليعقوب، بدافع رحمة الله ورأفته؛ وليست ردًّا على سبب بُغضة الله لعيسو، التي لا سبب لها إلاَّ رفض عيسو واستباحته واستهتاره بعطايا الله، الذي باع بكوريته بأكلة عدسٍ.**

«فإذًا ليس لمَنْ يشاء ولا لمَنْ يسعى، بل لله الذي يرحم.»
(رو٩: ١٦)

يستكمل الوحي الإلهي هنا على لسان القديس بولس الرسول تعليقه على المثال الذي سَاقَه من قبل، وهو اختيار الله ليعقوب، ومباركته له دون أخيه الأكبر عيسو، مستشهدًا بموقف الله مع موسى حين طَلَبَ أن يرى مجده.

---

[20] Philip Schaff, NPNF, First Series, Vol. 8, 466

[٢١] القمص تادرس يعقوب، رسالة القديس بولس الرسول إلى أهل رومية، ص ١٩٦.

لم يَقصِد الرسول هنا القول بأنه لا يوجد دورٌ للإنسان في خلاصه: «**ليس لمَنْ يشاء**»، كما لم يَقصِد أنه لا يوجد دورٌ للجهاد في نوال البركة: «**ولا لمَنْ يسعى**» - مع ملاحظة أن يعقوب جاهد مع الله وصارعه حتى الفجر لكي ينال البركة (تك٣٢)؛ بل قَصَدَ أن يؤكِّد على رحمة الله التي بها أحبَّ يعقوب، وأعلن عن هذا الحب حتى ويعقوب بعد جنين في بطن أمه. فالآية هنا - كما يقول القديس جيروم - لا تتعلَّق بـ "مَنْ يشاء" أو "مَنْ يسعى"، بل تتعلَّق بـ "الله الذي يرحم"[22]. كما أنها لا تتعلَّق، في المقابل، بـ "مَنْ لا يشاء" و"مَنْ لا يسعى".

إن كان اليهود أولاد يعقوب، مختار الله، قد قُبِلوا ليعرفوا الله ويؤمنوا به، وصار لهم التبنِّي والمجد والعهود والاشتراع والعبادة والمواعيد، ولهم الآباء، ومنهم المسيح حسب الجسد الكائن على الكل إلهًا مباركًا، فَهُمْ كأولادٍ ليس لهم أن يُسَائلوا الله في اختياره وقبوله للأمم. وهذا مبدأ عام أرساه القديس بولس الرسول بعد ذلك بقوله: «بل مَنْ أنت أيُّها الإنسان الذي تجاوب الله؟ ألعلَّ الجُبْلة تقول لجابلها: لماذا صنعتني هكذا؟ أم ليس للخَزَّاف سلطانٌ على الطين، أن يصنع من كتلةٍ واحدةٍ إناءً للكرامة وآخر للهوان؟» (رو٩: ٢٠، ٢١). هذا الكلام يقوم على أساس صلاح الله الكامل، ورحمته الفائقة، وحريته الكاملة التي ليس للعبيد - الذين صار لهم التبنِّي بحسب رحمة الله - أن يُراجِعوها أو يُناقِضوها.

ويتوافق حديث الله عن حريته في اختيار الأمم وقبولهم في الإيمان به دون مراجعة من اليهود، مع ما جاء في مَثَل أصحاب الساعة الحادية عشرة: «يا صاحبُ، ما ظلمتُكَ! أَمَا اتَّفقتَ معي على دينارٍ؟ فَخُذ الذي لك واذهب، فإنِّي أريد أن أُعطِي هذا الأخير مثلك. أو ما يَحِلُّ لي أن أفعل ما أريد بما لي؟ أم عينك شريرة لأنِّي أنا صالحٌ؟ هكذا يكون الآخِرون أوَّلين والأوَّلون آخِرين، لأن كثيرين يُدعَوْنَ وكثيرين يُنتَخَبُوْنَ» (مت٢٠: ١٣ - ١٦). ومن ضِمن ما يحمله هذا المَثَل من معانٍ وإشاراتٍ: دخول الأمم متأخرًا إلى الإيمان بالله،

[22] Philip Schaff, NPNF, Second Series, Vol. 6, 451

كأصحاب الساعة الحادية عشرة؛ في مقابل اليهود أصحاب التاريخ الطويل في معرفة الله كشعبٍ مختارٍ له، ويمثِّلهم الفعلة الأولون الذين عَمِلوا في الكَرْم في الساعات السابقة للساعة الحادية عشرة. وهؤلاء أيضًا تذمَّروا على صاحب الكَرْم: «هؤلاء الآخِرون عَمِلوا ساعةً واحدةً، وقد ساويتهم بنا نحن الذين احتملنا ثِقَل النهار والحَرَّ!» وقد جاءت إجابة صاحب الكَرْم - كما سبق - تعلن وتؤكِّد حريته في إعطائه فعلة كَرْمه بحسب ما يتراءى له، دون أن يكون للفعلة حق الاعتراض. بالطبع لم يعنِ هذا أن صاحب الكَرْم - الذي يشير إلى الله في المَثَل - ظالمٌ في عطائه للفعلة، رغم حريته الكاملة[٢٣].

لقد جاءت هذه الآية في سياق ردِّ الرسول - بوحي الروح القدس - على الفكر اليهودي الرافض لدخول الأمم إلى الإيمان بالمسيح دون التهوُّد أولاً. فقد أراد الله التأكيد على أنه اختار يعقوب دون عيسو، وهما بعد جنينان فى بطن أمهما بدافع رحمته - بناءً على سابق معرفته بهما وبحياتهما كما أوضحنا سابقًا، وهكذا له أن يختار الأمم ويقبلهم في الإيمان به بدافع رحمته أيضًا وكامل إرادته ومشيئته وحريته التي نثق في صلاحها الكامل، دون أن يكون لأحدٍ أن يراجعه. يقول الخوري بولس الفغالي معلِّقًا على حرية الله في الاختيار بدافع رحمته: "**إن نحن تكلَّمنا عن حرية الله، فلا نتكلَّم عن حرية اعتباطية تُهيِّئ مسَبَّقًا مصير الناس**، بل هي حرية تجعل الله يسبقنا في العطاء بعد أن اختارنا قبل إنشاء العالم"[٢٤].

هكذا نرى أن سياق حديث القديس بولس الرسول يتعلَّق بقضية عامة هي قضية حرية الله في قبول الأمم بدافع رحمته من أجل إتمام خطة خلاصه، الذي يشاء أن تحظى به كل البشرية. وبالتالي لا يتعلَّق سياق الحديث، لا من بعيد ولا من قريب، بقضية حرية إرادة الإنسان على المستوى الفردي. وبالتالي قضية

---

[٢٣] لا يتَّسع المجال في هذا المقال لتوضيح عدم ظلم صاحب الكَرْم للفعلة الأولين، إذ نرى أنه يُخرِجنا عن سياق الحديث. لكن لمَنْ يودُّ توضيحًا لهذا الأمر، يمكنه الرجوع إلى كتابنا: "رحلة مع أمثال السيد المسيح"، أسرة القديس ديديموس الضرير للدراسات الكنسية، كنيسة مارجرجس سبورتنج، ص ٥٥، ٥٦.

[٢٤] بولس الفغالي (الخوري)، *رسالة القديس بولس الرسول بولس الرسول إلى أهل رومة*، (الرابطة الكتابية، ٢٠٠٤)، ٣٧٢

الاختيار المثارة فى هذا الأصحاح بصفةٍ عامةٍ، وفى الآية التى نحن بصَدَد شرحها الآن بصفةٍ خاصةٍ، لا يجب فهمها أو تطبيقها على المستوى الفردي أو الشخصي؛ بمعنى أن الله يختار أُناسًا ويُعَيِّنهم للخلاص عشوائيًّا دون أن يكون لهم دورٌ في ذلك، بينما يختار آخرين ويُعَيِّنهم للهلاك عشوائيًّا دون أن يكون لهم ذنبٌ في ذلك. ولكن القضية هنا تتعلَّق بموضوعٍ خاصٍ ومعيَّنٍ هو قبول الله للأمم لكي يدخلوا في الإيمان به، دون أن يتهوَّدوا أولاً كما يطلب اليهود. وقضية قبول الله للأمم هي قضية عمومية وليست فردية، بمعنى أن ما يدافع عنه القديس بولس الرسول هنا هو مبدأ قبول الله للأمم، وليس قبول الله للأفراد: أممين كانوا أو يهودًا. وعلى هذا فما يعالجه الرسول هنا لا يخصُّ الأفراد كأفراد، فهو لا يتحدَّث عن إرادة الإنسان هل هي حُرَّةٌ أم لا، إنما عن خطة الله نحو خلاص العالم كله: إن الله الذى سَبَقَ فاختار إسرائيل شعبًا له كخميرة لتقديس العالم بمجيء المخلِّص حسب الجسد منهم، من حقه أن يرحم مَنْ يرحم ويتراءف على مَنْ يتراءف بفتح باب الرجاء لكل الشعوب، دون أن تقف الجُبْلة الضعيفة لتحاكمه.

أمَّا قضية الاختيار على المستوى الفردي فيمكن توضيحها بالشكل التالي:

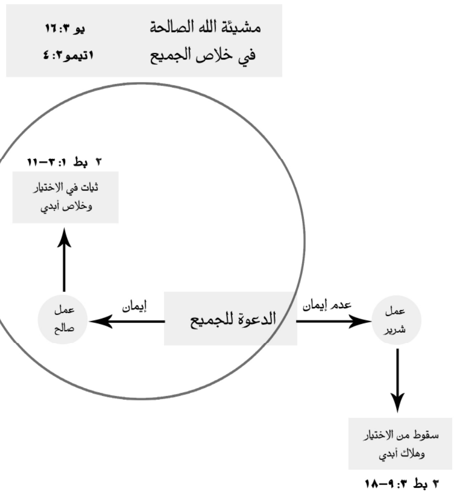

أي أن الدعوة للخلاص هي للجميع بحسب المشيئة الصالحة لله «**الذي يريد أن جميع الناس** يَخلُصون، وإلى معرفة الحق يُقبلون» (١تي٢: ٤)، والذي قيل عنه أيضًا: «هكذا **أحب الله العالم** حتى بَذَلَ ابنه الوحيد، لكي لا **يَهلِك كل مَنْ يؤمن به**، بل تكون له الحياة الأبدية» (يو٣: ١٦). ومَنْ يَقبَل الدعوة بالإيمان العملي العامل بالمحبة، مُقَدِّمًا في الإيمان فضيلةً، **فمِثْل هذا الإنسان يَثبُت داخل حَيِّز الاختيار بحسب مشيئة الله الصالحة في الخلاص الأبدي للجميع**.

في مطالعتنا للرسالة الثانية للقديس بطرس (٢بط١: ٣ ـ ١١)، نجد مفهوم الدعوة «**الذي دعانا**»، بجانب الدور الإنساني المتمثِّل في الجهاد والاجتهاد والعمل الصالح والمحبة التي تجعل الإيمان عاملاً وعمليًّا «**وأنتم باذلون كل اجتهادٍ**»، «**لذلك بالأكثر اجتهدوا أيُّها الإخوة**»، «**قَدِّموا في إيمانكم فضيلةً**»، «**وفي المودة الأخوية محبةً**». ونتيجة لذلك نجد الثبات في الدعوة والاختيار «**أن تجعلوا دعوتكم واختياركم ثابتَيْن**»، وبالتالي الدخول بسِعَةٍ إلى الملكوت ونوال الخلاص الأبدي «**لأنه هكذا يُقَدَّم لكم بسِعَةٍ دخولٌ إلى ملكوت ربنا ومخلِّصنا يسوع المسيح الأبدي**».

أمَّا مَنْ لا يحيا بالإيمان، فيخرج **خارج حَيِّز الاختيار بإرادته الذاتية الشريرة، التي تظهر في أعماله الشريرة** النابعة، ليس من مجرد الضعف البشري، بل من الرفض العملي للإيمان بالمسيح المخلِّص الذي يَقبَل توبة الخطاة. هكذا يسقط مِثْل هذا الإنسان من الاختيار، لينال هلاكًا أبديًّا. هذا ما نراه بوضوح في (٢بط٣: ٩ ـ ١٨). في تلك الآيات نجد مشيئة الله الصالحة في عدم هلاك أحدٍ، بل قبول الجميع إلى التوبة ـ وهو ما لا يُلغِي وجود الخطية الناتجة عن الضعف البشري إنما يُقَدِّم لها علاجًا بالتوبة ـ لأجل الخلاص الأبدي «**لكنه يتأنَّى علينا، وهو لا يشاء أن يَهلِك أُناسٌ، بل أن يُقبِل الجميع إلى التوبة**»، «**واحسِبوا أناة ربنا خلاصًا**». كما نجد الدور الإنساني «**أيَّ أُناسٍ يجب أن تكونوا أنتم في سيرةٍ مقدسةٍ وتقوى؟ منتظرين وطالبين سرعة مجيء يوم الرب**»، «**إذ أنتم منتظرون هذه، اجتهدوا لتُوجَدوا عنده بلا دنسٍ ولا عيبٍ،**

في سلامٍ»، «إذ قد سَبَقتُم فعَرَفتُم، احترسوا من أن تنقادوا بضلال الأردياء». وفي إهمال الإنسان لدوره في خلاص نفسه، بانقياده وراء الضلال في عدم إيمان، وعدم التجاء إلى الله بالتوبة، تكون النتيجة المؤلمة والمؤسفة هي السقوط من الثبات في الاختيار «**فتسقطوا من ثباتكم**». وهذا السقوط والخروج خارج حَيِّز الاختيار ليس بحسب مشيئة الله، ولا بحسب قضائه، ولا بسبب عدم أمانته. حاشا! إنما بسبب عدم أمانة الإنسان لله، وعدم ثباته في الإيمان به، وعدم السلوك في حياة القداسة، بل في الأعمال الشريرة؛ كل هذا مع عدم انسكاب الإنسان أمام الله، إحساسًا بالضعف والخطية، وطلبًا للتوبة. **وهكذا يكون سقوط هذا الإنسان وهلاكه الأبدي هما مسؤولية الإنسان بالكامل حتى إنه بلا عذرٍ (رو١: ٢٠؛ رو٢: ١).**

كذلك يمكن أيضًا تصوير قضية الاختيار على المستوى الفردي بحديقة غَنَّاء، مكتوب على بابها: "الكل مدعوُّون للدخول". وإذ دَخَلَ البعض إلى الحديقة من خلال الباب، وجدوا كتابة أخرى على الباب من الداخل من الناحية الأخرى: "هنا يوجد المختارون". هكذا نفهم كيف أن الذين تجاوبوا مع دعوة الله، هم الذين يصيرون من المختارين.

يُتبع